قضايا الأدب والأدباء

معركة حول الادب والموقف

بقلم غالب هلسا

لم تكن المعركة الادبية ـ السياسية التي اثارها محمود امين العالم مؤخرا اولى معاركه ، والدلائل تشير انها لن تكون اخرها . والمعركة قد خفتت الان ، ولكنها ما تزال تثير ، هنا وهناك ، بعض الانفجارات العصبية المتوترة . والذي حدث فيها ليس خطيرا في حد ذاته ، اذ اتخذت المسار الذي يميز المناقشات الادبية والذي اصبح طابع الحياة الفكرية منذ زمن . اذ تنوولت موضوعاتها بخفة عهدناها ثم انتقلت سريعا الى مماحكات ومشاحنات شخصية . ولكن المهم في هذه المعركة هو دلالاتها .

كانت المعارك السابقة التي يثيرها محمود امين العالم واضحة المعالم ومحددة . فممثلو الجانب الاخر كانوا من عتاة الرجعيين الذين استقروا ، منذ زمن طويل ، عند اراء لم يعد هناك من يدافع عنها . وكانوا يعتبرون كل جديد كارثة اخلاقية .

بعد جولتين او ثلاث ، اتضح تماما ان العقاد ومجموعته يخوضون معركة خاسرة لا جدوى فيها ولا شعبية لها. ومات العقاد وهو يرى ان كل شيء قد اصطبغ باللون الاحمر .

اما المعركة الحالية فهي مختلفة تماما ، فمسالكها صعبة والجميع يلبسون فيها عباءة اليسار ومن خلفها يوجهون الطعنات شمالا ويمينا .

كانت البداية عندما خرج محمود امين العالم ـ بعد احتجاب طويل ـ فتجول في الشوارع وتشمم رائحة الدخان المنبعثة من المصانع ، ثم شاهد البسمات التي تعلو الوجوه ، ثم دقق النظر في ارقام الانتاج ومشاريع التصنيع والبناء فغمر الفرح قلبه وفاض على كل شيء . وبينا هو في قمة نشوته قادته قدماه الى حي عابدين واذا به امام مسرح الجمهورية ، فدخل وشاهد مسرحية «الفرافير» من تاليف يوسف ادريس . وغادر المسرح ساهما . ثم تناول ديوانا من الشعر وقع بين يديه ، وكان ديوان صلاح عبد الصبور الاخير . فازدادت حيرته وسهومه، واخذ يسائل نفسه : الا يزال في هذا العالم والعصر حزن واسى ومرارة؟

المسألة في ذهنه واضحة كل الوضوح ، ومن عجب ان الاخرين عجزوا عن فهمها واتخاذ الموقف الصحيح منها : فلو ان احدا رفسك حتى ابيضت عيناك ، او لو ان اهانة لحقت بك ولم تستطع لها ردا فما عليك الا ان تتنشق دخان المصانع حتى يمتلىء قلبك بالسرور وتغرد كعصفور ربيعي .

ورد صلاح عبد الصبور فردد هذا الرأي العتيق الذي اتهم هو به منذ زمن غير بعيد ، وهو ان كل مؤمن بالواقعية الاشتراكية في الادب ، في كل زمان ومكان هو عميل من عملاء موسكو ، يتلقى منها الوحي والاوامر. ولا يصدق ذلك في مجال السياسة وحسب وانما في مجال الادب ايضا.

مثال ذلك ، ان الروس اجتمعوا وقرأوا كافكا فقرروا انه رجعي الى اقصى حد . فرددت ابواقهم ككورس ابله « رجعي الى اقصى حد ... » ، ثم عاد الروس فقرأوا كافكا مرة اخرى وقلبوه بين ايديهم فاكتشفوا انه تقدمي الى حد بعيد ، فانطلقت ابواقهم تردد هذا الرأي دون خجل او حياء . ولهذا فصلاح عبد الصبور لن يناقش العالم ولكنه سيناقش موسكو رأسا دون وسطاء .

ولم يبد صلاح اي اعتراض على ما يحدث في موسكو اذ ان هنالك الكثير من التطورات المشجعة ، وما على العملاء الا ان يتبينوا حقيقة الامر هناك .

اما كيف يكون هذا ردا على رأي محمود العالم في ديوانه ، فهذا امر احترت فيه اشد الحيرة .

واشترك رمسيس يونان في المعركة ، معلنا ان بعض اتباع ستالين ـ وهو يعني محمود امين العالم ـ الذين لم يفهموا الماركسية يتحدثون عما يسمى باليقين العلمي . واكد رمسيس ان اليقين العلمي امر لا وجود له ، وان جميع الامور نسبية . وكل ما يمكننا التأكد منه هو بعض الارقام المجردة . اذن ، فلا يحق لانسان ان ينتقد اخر تحت ستار اي مفهوم ، ما دام ليس ثمة ما هو مؤكد ويقيني .

ورمسيس يونان هنا ، كما هو واضح ، يخلط بين نسبية القانون العلمي وبين عدم وجوده اصلا ، كما ان هذه النسبية ليست ثابتة ، وانما تزداد يوما عن يوم اقترابا من اليقين . وهذا ما نسي ، عامدا ، ان يوضحه رمسيس يونان .

وهو منطقي مع نفسه تماما ، فعندما عرضت عليه احدى اللوحات ليبدي رأيه فيها ، قال بحماس :

لقد وصل بيكاسو الى مستوى اذهلني ... هذه الصورة هي قمة عبقريته ... الان اصبح بيكاسو لا مثيل له ...

ولم تكن اللوحة الا شخبطة قرد وضعت في يده فرشاة الوان فاخذ يعبث بها .

وهنا يبدو واضحا أن رفض القانون العلمي هو رفض للمسؤولية.

وفي دراسته لديوان صلاح عبد الصبور ، اشار لويس عوض بتعال الى ان بعض الناس يقولون : كيف نتكلم عن الحزن ، بينما نحن نبني السد العالي ؟ فاجاب لويس عوض بانه سيدرس الديوان كعمل فني وحسب . واغرب ما في الامر ان لويس عوض لم يفعل شيئا من هذا ، وانما راح كما لاحظ الدكتور عبدالقادر القط « يؤول المضامين النفسية والدينية في الديوان بشيء غير قليل من التعسف متحدث عن الهيولى والقوة الاولى وشيء ثالث وسيط بينهما ويعرض باسهاب غريب رسالتين شعريتين باللغة اللاتينية تبادلهما قسيسان في القرن الثالث عشر يفاضلان فيهما بين المرأة المجربة والعذراء حتى استغرق عن الرسالتين اكثر من نصف المقالة الثانية . كل ذلك لكي يربط بعد ذلك بين هذا الموضوع واعتقاد صلاح عبد الصبور في الخلاص بالحب » .

واما ما التزم به لويس عوض في بداية مقاليه من دراسة فنية للديوان ، فقد انكره بعد ذلك بدعوى غريبة مضحكة ، وذلك ان دراسة الجوانب الفنية للعمل الادبي تحتاج كتابا لا مقالة ، موحيا لنا بشيء اشد غرابة وهي ان الدراسة الفنية تنصرف الى «جزئيات البيان والبديع والبلاغة والعروض » .

اذن ، فما الذي ينكره لويس عوض على محمود العالم في هذه الحال ؟ الانه لم يتوصل الى هذه النتيجة الباهرة وهي ان صلاح عبد الصبور يداوم قراءة التوراة والانجيل وانه متأثر بهما الى اقصى حد ؟ (لقد قال لويس عوض شيئا مشابها عن نجيب محفوظ في روايته الطريق) .

ان لويس عوض يواصل السير في طريق اشتقه منذ زمن ، وهي مهاجمة الفكر الاشتراكي باسلوب شائع معروف ، وذلك بان يعرضه مشوها حتى يصبح بامكانه مهاجمته والتعالي عليه ، وذلك واضح في كتابه (الاشتراكية والادب) حيث دعا الى استبدال فكرة الواقعية الاشتراكية بفكرة القبول المسيحي .

اما يوسف ادريس الذي نالت مسرحيته الفرافير حظا من لوم محمود العالم وهجومه فقد مضى يؤكد في عدد من المقالات ان روسيا ليست الجنة التي وعد بها المتقون ، بل انها لها مشكلات ومصاعب ككل البلدان . وهو يؤكد لنا انه لم يأت بهذه المعلومات من عنده ولكن الروس الذين زارهم في بلادهم قد قالوا له ذلك . ولم يكتف يوسف

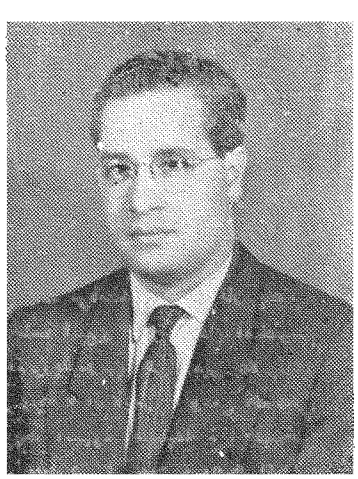

محمود أمين العالم صلاح عبد الصبور

ادريس بذلك بل قال ان للفن اهمية كبرى . كيف ذلك ؟ وكان رده ،ماذا يكون مصير الناس لولا الفن !

وكتب رجل غريب الاطوار ذو شطحات قائلا انه سيسحق العالم وانصاره ، ولن يغفر لهم ابدا ، والايام بينه وبينهم . بل ذهب به الامر ان شكا محمود العالم الى خروشوف ، وافهم خروشوف انه يحترمه ولكنه لا يحترم اتباعه .

ويحق لنا ان نتساءل : لماذا اثارت كلمات العالم كل هذا السخط؟ ولماذا اتفق مناقشوه جميعا على تجريحه شخصيا دون الاعتناء بمناقشة ارائه ؟ لقد انكر احسان عبد القدوس ما في ديوان صلاح عبد الصبور من الحزن ، ولكن ذلك لم يستثر احدا ، كما ان مسرحية الفرافير قد واجهت بعض الهجوم ولكن يوسف ادريس لم ينفعل مثل هذا الانفعال.

كما ان الامر الغريب هو ان الفريق الذي رد هجوم العالم قد تبنى فجأة اراء اليمين المتطرف ضد هذه الاراء . ان شخصيات يمينية معروفة تتجسد امامنا عندما نسمع اراء عن رفض مناقشة المضمون الاجتماعي للادب ، والغاء كل علاقة بين الادب والمجتمع ، والاعتراض على تحديد موقف الفنان من خلال فنه ، مضافا الى هذا كله الاستعداء النزق للسلطة والتحول السريع الى المماحكة والطعن الشخصي . اننا نرى صورا مكررة لعباس العقاد وصالح جودت وغيرهما .

واذا مضينا في تحليل موقف هذا الفريق فاننا نجد العجب العجاب . فبينما هم يرفعون اصواتهم صراحة بمنع العالم من الادلاء برأيه نراهم يصرون على ان موقفهم هو دفاع عن الحرية . وليس لهذا معنى سوى ان حرية التعبير هي امتهان للحرية . وهذا بالطبع منطق لا يستقيم .

حتى نجد لهذا كله معنى فان علينا ان نمضي الى ابعد من ظاهر قول الفريقين . ان علينا ان نبحث عن التركيب النفسي للفريقين حتى نملأ الفجوات التي يخلقها مثل هذا الموقف المضطرب المتناقض .

ما هي وجهة نظر الطرفين المتنازعين على حقيقتها ؟

ان جوهر موقف العالم هو انه لا يوجد تناقض بين الفنان الثوري والحكومة الثورية على الاطلاق . وعليه ـ اي الفنان ـ ان يرى في كل ما يحدث الخير كله ما دام الاتجاه العام صحيحا . ان التفاؤل والفرح يجب ان يكونا جوهر كل فن ينتج في هذه الفترة .

واذا كان هذا سيقودنا الى التضحية بالفن ، فالخسارة ليست كبيرة ، والقضية اهم واكبر من الفن ، انها قضية مصير تحددها الاتجاهات الاقتصادية والسياسية . وبكلمة اخرى ، ان على الفن ان يكتفي بدور التابع الصغير النشيط الذي ييسر الامور ولا يزيدها تعقيدا.

وسنرى بعد قليل ان هذا الموقف هو موقف حكومة الثورة في السابق والذي يبدو انها تخطته الى حد كبير .

اما الجانب الاخر فيرى ان الفن لا علاقة له بالوضع على الاطلاق . الفنان يعبر عما في داخله ولا يتعرض لما هو خارج عنها . ولا شأن للفن ، فيما يرى هذا الطرف، بالمجتمع او بالظروف السياسية او الاجتماعية . انه لا يصدر حكما على العالم لان مقياس الحكم مفقود . هنالك فقط فن جيد وفن رديء ولا شيء غير ذلك او بعده . وهذا الطرف يرى ان مطالبة العالم لهم بمناقشة موقفهم هو توريط واستفزاز وربط اشياء لا علاقة بينها . ان ذلك ، كما عبروا بصراحة ، اعتداء على حريتهم في التعبير .

والغريب في هذا الموقف ان اكثر الجوانب ايمانا بالحرية هي الحكومة التي قبلت الجميع وافسحت لهم مجال التعبير . بل ان الحكومة لا تتفق مع محمود العالم في عدم وجود تناقض في داخل المجتمع الذي تحكمه . فقد تحدث الرئيس جمال عبد الناصر اكثر من مرة عن ضرورة النقد وعن التناقضات القائمة بين صفوف الشعب .

كيف نشأ هذا الموقف ؟

ان الجانب الذي استفزه نقد العالم يعاني ازمة ضمير مقلقة وموجعة . وهو لا يود ان يذكره بها احد . لقد كان هنالك نوع من اتفاق الجنتلمان ان يتناساها الجميع وان يمتنعوا عن الاشارة اليها .

ثم أتى محمود امين العالم وفجرها بسذاجة بالغة فهبت العاصفة في وجهه . لقد مضى ردح من الزمن عول به المثقف صاحب الرأي بقدر كبير من الاستهانة ، فكان يؤخذ بالعنف ان لج في عناده ، وباللاطفة والاغراء ان استكان وهدأ . وكانت النتيجة ان هزم المثقف ذو الرأي ولكنه بلغ غاية ما يرجوه من الرخاء المادي ومن الامتيازات التي منحت له.لقد جرد من رسالته في اصلاح العالم واعطي دورا ثانويا في المجتمع، ولكنه مقابل ذلك ، منح امتيازات الفئات العليا ، التي سرعان ما اصبحت فضية يدافع عنها . ان وضع الفنان المميز يبدو واضحا اذا ما قورن دخله بدخول الفئات الاخرى والمجتمع ، ودخله هو شخصيا قبل أن يصبح من فئة المحظوظين .

ولم يمنحهم هذا الوضع الاحساس بالرضا ، ولكنه جعلهم على استعداد للدفاع عنه حتى اخر قطرة دم .

لهذا اخذ فن هؤلاء المثقفين يعكس تعارضا نفسيا مؤلما وصراعا داخليا مريرا ، بلغ قمته في ديوان صلاح عبد الصبور الاخير (احلام الفارس القديم) .

هذا الديوان وثيقة هامة ورائعة نستحق ان تدرس بعناية واهتمام كبيرين . ومع الاسف ان احدا حتى الان لم يقم بهذه الدراسة ،باستثناء لويس عوض الذي يمكننا ان ندخل مقالتيه عن الديوان في باب الطرائف لا باب النقد الفني والتقييم الجاد .

لقد قدم لنا صلاح بمستوى عال من الشاعرية وبالفاظ عاطلة من كل زخرف وغنائية ، وتراكيب خشنة طازجة ، عريا وصدقا فريدين. ان افتقاده لدور فعال مؤثر في المجتمع يربط بضجر كابوسي وتحلل نفسي مخيف ، انه اختناق في سرداب لا يحرك ركوده نسمة :

الصمت راكد ركود ريح ميته
حتى جنادب الحقول صامته
وفية السماء باهته
والافق اسود وضيق بلابواب
منكفيء من حيثما التفت كالسرداب

ان هذا التحلل يتبدى في نكوص طفولي ساذج :

الله لو جلست في ظلالك الوارفة اللفاء
اجدل حبل الخوف والسأم

كما يتبدى في صورة الفارس الذي فقد اصالته وصدقه .فهو ما زال يحمل ملامح الفارس ولكنها ملامح كاريكتيرية : متوج الفودين بالحديد والحصى ، قسماته تنطق بالزيف ، ولسانه الذرب يجيد الثرثرة ، ونفسه تضج بالانفعالات الرخيصة الشائعة . وامام صورته

تفتقد الفتاة التي تجلس قبالته فارس احلامها الذي كان جميلا بلا تزويق، مثقفا بلا ادعاء ، حنونا بلا صخب ، محتشما لنبل في طبعه .

ان مجتمع المنافع المتبادلة قد قتل الحب « الحب بالفطانة اختنق، واصبح لقاء المرأة بالرجل في لحظة الشبق ، تنشأ العلاقة وتنتهي في تلك اللحظة . »

ان شوقا للرجل الذي كان ، للفنان الذي يعيش قضايا عصره ويؤثر فيه ، للصدق الذي كان يملأ قلبه ... مثل هذا الشوق الذي يصـــر الشاعر على انكاره تفضحه لحظة صدق :

قد كنت فيما فات من ايام
يا فتنتي محاربا صلبا ، وفارسا همام
من قبل أن تدوس في فؤادي الاقدام
من قبل أن تجلدني الشموس والصقيع
لكي تذل كبريائي الرفيع
كنت اعيش في ربيع خالد، اي ربيع
وكنت ان بكيت هزني البكاء
وكنت عندما احس بالرثاء
للبؤساء والضعفاء
اود لو اطعمتهم من قلبي الوجيع
وكنت عندما ارى المحيرين الضائعين
التائهين في الظلام
اود لو يحرقني ضياعهم، اود لو اضيء
وكنت ان ضحكت صافيا ، كانني غدير

الى أن يقول :

يا من يدل خطوتي على طريق الدمعة البريئه
يا من يدل خطوتي على طريق الضحكة البريئه

وعندما ينفجر قلب الشاعر بالفرحة الطاغية للحب وللقاء امرأة تحنو عليه فان المسألة تبدو مشبوهة . اذ ان ضياعه واساه وضجره كـــان يبدو وكأنه جزء من التركيب الكوني والكيان الاجتماعي ، متضمن فيـه ونابع منه ، ثم نكتشف فجأة ان ذلك كله مصادفة ولا اساس له . ان الفن هنا يتحول الى مجرد شكوى من تصاريف الزمن.

ولكننا حين نمضي في قراءة الديوان نجد انها واحة صغيرة ركـن اليها الشاعر حينا ثم عاود مسيرته المضنية . ان لحظة الحب تبـــدو مجرد اشراقة وسط كابوس اليأس ، بل ان التشبث بها بكل هذا العناد يكشف عمق المأساة .

والواقع ان الضجر الذي يعكسه الديوان من المرأة ، ومن الجلوس في الاماكن الانيقه ، واستعراضه لثرثرة المهزومين المسئمة وللادعاءات البلهاء هي في حقيقتها تعبير عن الرفض لهذه الامتيازات التي تكبله وعن الضيق بها ، لانها لم تعط للفن فعاليته ودوره واحترامه لذاته .

ولكن التصوير لهذه الهموم على انها قدر لا مهرب منه ، على انها جزء من التركيب الكوني ، هو خضوع لهذه الامتيازات وتشبث بهـا . لهذا كنه ، يبدو شوق الشاعر للحب الحقيقي ،والفرح الصادق،والبراءة، والانسان الانسان ... يبدو شوقه للخروج ايكم عنيفا .

وفي اخر روايات نجيب محفوظ (الطريق) ينطلق صابر باحثـــا عن اب يعيد له احساسه بالكرامة والانتماء والسلام . ان عارا مهلكـــا يذله ويلاحقه كظله ، وهذا الاب وحده القادر على ان يمحوه ويعيد لـه الحياة السوية .

وفي الطريق الى هذا الاب تعرض لصابر اغراءات عديدة ووعـود لتصده عن عزمه وتثنيه عن المضي في طريقه . هنالك الهام التـــي تحيطه بحبها الحنون ، بالعمل المنتج ، بنسيان الماضي كله في رحم لقاء ينسي كل ما عداه . وهناك باب الملذات ، لحظات الشبق التي يضيـع فيها كل احساس بالهدف البعيد ، والثراء السريع الذي ينتظر ـ جسد كريمه ومالها . ولكن ذلك كله لا يثنيه لحظة واحدة عن سعيه الحثيث المتصل والمدمر في الوقت ذاته عن الكرامة متمثلة في ذلك الاب .

ان كل ما يعرض له هو واحات على الطريق يركن اليها ويعيد منها لمواصلة البحث .

ولكنه فجأة يكتشف ان البحث عقيم . فالاب الذي يبحث عنه رجل داعر يزرع فجوره في القارات الخمس ولا يؤرقه مصير من خلف وراءه. ويقف صابر امام مصيره المفجع ،في الوقت الذي فقد فيه كل شيء، يراوده بين الحين والحين حلم الخلاص على يد ذلك الاب .

اننا نقتصر على هذين المثالين لاهمية وصدق الشهادة التي يؤديها فنانان هما اكثر فنانينا اصالة وحساسية واكثرهما اخلاصا في التعبير عن ازمة الجيل .

كان هذا نتيجة حتمية للوضع في احد مراحله ، عندما كان بحاجة الى دعاة لا الى ثوريين ، وذلك عندما حلت البيروقراطية محل التنظيـم الشعبي في تطبيق وحماية الاجراءات الثورية ،وفي خلق الجو الملائم لها.

وقد قام الدعاة بدورهم على خير وجه ، اذ ايدوا الوضع التقدمي بنفس المنطق والاسلوب اللذين ايدا بهما العهود السابقة : الحمـاس المنقطع النظير لكل ما هو واقع ومتفق عليه من الجميع ، وعدم التقدم خطوة واحدة بعد ذلك . ومحاربة كل اتجاه يدعو الى دفع الوضع الى الامام بشراسة وعنف منقطعي النظير . والداعية بطبعه محافظ .

اما الثوري فله عين نسر تجوب الافق وترى الى ابعد مما وهـــو واقع . انه يلمس تناقضات الواقع العميقة ، ويحاول ان يتغلب عليها .

والفنان ثوري لان الواقع بالنسبة له في حالة انحلال وتكون مستمر.

ولهذا ، فعندما فرض عليه دور الداعية ، هرب بفنه من المجتمع .

***

اما موقف محمود امين العالم فلا يمكن وصفه الا بالسذاجة او علـى الاقل بادعائها . هل يمكن ان يكون الانسان متفائلا بمجرد ان ندعـــوه لذلك ؟ ولا ادري لماذا لم يسأل العالم نفسه عن معنى ودواعي التفاؤل . هل ينتج عن مجرد مراقبة سير الامور الى الاحسن دون ان يكون للفنـان دور في ذلك ؟ هل يعكس الفنان فرحه بالظروف الحسنة عندما يعطى دور

هوامش

« الارض في مخاض ،
ونفسي في مخاض .
في كل رفة جفن تتمخض الارض عن الف الف عجيبة لتعـــود فتحبل بالف الف عجيبة .
وفي كل رفة جفن تتمخض نفسي عن مواليد لا حصر لها ولا عد لتعود فتحبل بمواليد لا تحصى ولا تعد .
مواليد الارض تشقى وتسعد الى حين .
ومواليد نفسي تشقى وتسعد في كل حين .
فلا الارض تشكـو .
ولا انـا اشكو . »

هكذا يفتتح

ميخائيل نعيمة

كتابه الجديد

الذي سيكون قريبا بين ايدي القراء

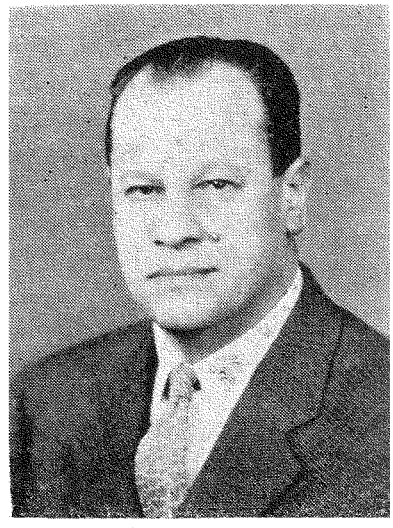

نجيب محفوظ لويس عوض

التابع الصغير ؟ اننا في الحقيقة نطلب الى الفنان ان يتمتع بقدر كبير من احتقار الذات .

ثم لماذا يتناسى العالم ابسط القوانين الموضوعية في عملية الانتاج، هل هي مجرد نتيجة الاقتناع برأي والتعبير ، ام حصيلة تجربة ذاتية يستحيل ان نسيطر عليها سيطرة واعية ؟

ان أي ناقد يهمل ميكانزم عملية الانتاج الفني ويكتفي بالنظر الى الفن كمجرد رسالة يجهل الفارق بين الفن والدعاية .

لقد قلنا فيما تقدم ان العالم يعكس وجهة نظر السلطة في احد مراحلها ، تلك النظرة التي تخطتها الثورة كما تؤكد تصريحات المسؤولين وميثاق العمل الوطني ، باستثناء بعض الاجهزة المحافظة . فكيف ذلك ؟

كان موقف السلطة في السابق يتلخص في اتخاذ الوصاية اسلوبا في معاملة الجماهير . وقد استندت في ذلك الى بعض تجاربها السابقة ، اذ ان تنفيذ اجزاء عديدة من مخططها الثوري كان يقابل احيانا بمقاومة من جانب الشعب او بعدم مبالاة .

ويمكننا ان نستدل من عدة شواهد ان الثورة لم تكن تنتظر هذا الموقف من الجماهير ، اذ كان يخيل اليها ان الاخلاص لقضية الشعب والاقدام على تحسين احوال الشعب يكفيان لنيل تأييد جماهيري على اوسع نطاق . ولكن موقف الشعب كان طبيعيا ومنتظرا . فكل اجراء ثوري يواجه قوة العادة عند الجماهير ويتعارض مع القيم التي ارستها الاوضاع المتخلفة السابقة . فلهذا كان من الواجب الا يكون الاجراء الثوري مفاجئا ومفروضا على الشعب ، بل كان يجب ان ينفذ بالتعاون مع الشعب ـ مع الشعب المنظم سياسيا والواعي فكريا .

كما كان هنالك العديد من الاخطاء في التقدير والتقييم التي تواجهها قيادة كانت تملك الاخلاص ولكنها لا تملك نظرية للعمل ، بل كانت التجربة والخطأ هما وسيلتها في الحكم .

من هنا رأت حكومة الثورة ، استنادا الى تجربتها الخاصة ، ان السيطرة الكاملة على جميع اجهزة التوجيه ، وفرض نوع من الوصاية الفكرية والسياسية هو ايسر الوسائل للمضي في تنفيذ مخططها الثوري .

ومن الامثلة التي نستطيع ان نضربها على هذا الاتجاه موقف بعض دور النشر الحكومية من المواد التي كانت تقدم اليها للنشر وقبولها او رفضها على اسس غريبة ورجعية .

ولكن من الواضح ان صدور ميثاق العمل الوطني ، والغاء قوانين الطوارىء ، وانشاء المجالس الشعبية هي خطوات اولى في التخلي عن منهج الوصاية . ان رد الفعل اليميني ـ في داخل الجمهورية العربية المتحدة وفي العالم العربي ـ الذي اعقب الاجراءات الجذرية التي اتخذت في المجال الاقتصادي قد جعل الاعتماد على الشعب ضرورة ملحة .

ان الرجوع الى التجربة السوفييتية امر بالغ الاهمية ، اذ هي معين من الخبره لا ينضب .

ماذا كان موقف لينين من العلاقة بين السلطة الحاكمة وجماهير الشعب ؟

لقد تعودت الدراسات السوفييتية في السابق ان تهمل هذه النقطة او ان تكتفي بتحريفها .

وعند نجاح ثورة اوكتوبر ، كان لينين يعتقد انه يجب ان تمنح جميع الاحزاب حرية العمل في اطار الوضع الجديد . ولهذا اجريت انتخابات اول مجلس تأسيسي ، ولكنه حل لان الاحزاب المعارضة نالت اكثرية ساحقة مما يهدد الوضع الجديد .

ولكنه مع ذلك لم يتخل عن فكرة الاحزاب المتعددة ، واعتبر ايقافها ابان الحرب الاهلية مجرد ضرورة مؤقتة . كما أن لينين سمح بتعدد الاجنحة في داخل الحزب البولشفي ذاته . والى جانب هذا كله افسح المجال لجميع مدارس الفن والادب لان تعبر عن نفسها بكل حرية ودون اي تدخل من السلطة .

ماذا كان موقف لينين من الدولة ؟

انه كان يرى ان انتصار الثورة الاشتراكية هو بداية فناء الدولة وتلاشيها . اذ على الدولة ان تنقل سلطاتها شيئا فشيئا الى الشعب ، وبهذا تسير الدولة نحو التلاشي والانتهاء .

كما كان يرى ان من الواجب فصل الحزب ـ الموجه الفكري للدولة والشعب ـ فصلا تاما عن اي تنظيم غير حزبي بما في ذلك الدولة . ان ذوبان الحزب في الدولة يعني انه فقد قدرته على التوجيه ، ويعني تحول الدولة الى الديكتاتورية ضد الشعب .

ولكن ستالين ابى وعكس الاية بنظريته الغريبة التي تقول انه كلما توطدت قوة الدولة الاشتراكية ، ازداد الصراع الطبقي في داخل المجتمع الاشتراكي عنفا ، وبالتالي ازداد التهديد بالقضاء على الدولة . وبوحي من هذه النظرية بدأ ستالين بمذابحه التي اتت على معظم قادة الثورة ومفكري الحزب ، وجميع مارشالات الجيش الاحمر ، ومئات الالوف من الشيوعيين المخلصين .

اما الحزب فقد تحول الى جهاز من اجهزة الدولة .

واما الفن فقد أصبح متفائلا الى اقصى حد ورديئا الى اقصى حد ، حسب اوامر ستالين . فعندما شاهد ستالين ومولوتوف اوبرا « ليدي ماكبث اوف متنسك » من تأليف شوستاكوفتش ، صدر قرار بايقاف عرضها فورا لانها مجرد ضجيج لا معنى له ـ على الرغم من انها عرضت لمدة سنتين واعتبرت احدى قمم الفن السوفييتي بواسطة النقاد .

وهكذا تحول الجميع الى مجرد اتباع ، لان الرفيق ستالين كما قال عن نفسه مرة في احد ردوده « ليس من السهل أن يخطىء » .

اما الجيل الناشىء فمنع من التحدث في شؤون السياسة . ففي عام ١٩٣٦ ، وفي مؤتمر الكومسمول ، تحدث رئيس المنظمة قائلا ان على جميع الشبان ان يتوقفوا عن التحدث في السياسة .

ثم اضاف ساخرا ، أن من يسمعهم يتحدثون عن العشرات من المشاكل الداخلية يخيل اليه انهم هم الذين يديرون شؤون البلاد .

ما الذي يعنيه هذا كله وما الذي يعنينا منه ؟

ان علينا ان نبدأ من النقطة الاساسية وهي ان وجود السلطة ، اي سلطة ، هو حد من حرية الشعب ، واستيلاء على احد الواجبات التي يجب ان يمارسها الشعب الحر .

معنى هذا ، ان وجود السلطة مرتبط بظروف معينة تجعلها ضرورة كمستوى وعي الشعب ، والمستوى الاقتصادي ، وظروف التهديد الخارجي الخ ... وان مسارها الطبيعي هو التخلي التدريجي والمستمر عن سلطاتها للشعب المنظم الواعي .

فعلى ضوء هذه الحقيقة ماذا يكون موقف محمود امين العالـــم وخصومه ؟

ان علينا أن نحدد ذلك انطلاقا من موقف الطرفين من الفن .

من الواضح ان هنالك شبه اتفاق عام ـ كثيرا ما ننساه عنـــد التطبيق ـ أن هنالك شروطا موضوعية لعملية الانتاج بدونها لا نستطيع التوصل الى فن حقيقي . وبجانب هذا لا بد أن يكون للفن رسالة،نابعة من كونه احد وسائل المعرفة . انه يستحيل ان نتصور فنا لا يمنحنـــا مزيدا من الفهم للعالم من حولنا ولذواتنا .

وموقف الطرفين من جوهر الفن ورسالته يشير في النهاية الـــى موقفهما من قضية المجتمع الاساسية : علاقة الشعب بالسلطة .

يرى العالم ان واجب الفن الاساسي هو تثبيت السلطة والدفـاع عنها لانها تقوم بدور تقدمي في تغيير المجتمع . اي اخضاع الفن للموقف الآني والمرحلي .

وهذا الموقف ينكر امرين :

الاول ، عدم الاخذ بالاعتبار طبيعة العمل الفني .

الثاني ، الخلط بين رسالة الفن كاحدى وسائل المعرفة ، وتحويله الى وسيلة للدعاية .

اما خصوم العالم فهم يتخذون موقف الدفاع عن عملية الانتـــاج الفني دون اي أعتبار لرسالة الفن . ان جوهر هذا الموقف ، هو الموقف المحافظ الذي اتخذه الدعاة المتحمسون للوضع . وهو باختصار ازليـة التقسيم الاجتماعي ، على اعتبار ان كل طائفة في المجتمع لها وظيفـــة تؤديها ، ومن الواجب المحافظة على هذا التقسيم وعدم تخطي الحدود.

وهذا الالتزام بازلية التقسيم الاجتماعي ـ الذي اصبح قدرا لا راد له في مسرحية الفرافير ليوسف ادريس ، هو تعبير عن التمســـك بامتيازات الفئات العليا التي منحها الفنانون في المرحلة السابقة .

ان كلا الموقفين ، في رأينا ، خاطىء وضار . فجعل الفن والفكـــر مجرد تبعين ذليلين لضرورات مرحلية هو تعبير عن عدم ثقتنا وعـــدم احترامنا للشعب . ذلك يؤدي الى خلق اجيال فقيرة روحيا وذهنيا ، ويقتل روح الخلق والابتكار عند الشعب . انه مجرد نسخة جديدة من الفكرة القديمة : فكرة الرعية والراعي الصالح .

اما الرأي المخالف فهو اشد ضررا ، اذ يلغي دور الفن كاحـــدى وسائل التوعية ، ويمنعه من ابداء رأيه في قضايا عصره .

ويستفيد من هذين الاتجاهين اتجاه اخر متماسك اشد التماسك، قوي وهو تيار الفكر اليميني . ان سيطرة اي من الاتجاهين المذكورين يفسح المجال عل يسمته امام الفكر اليميني ليكون الملجأ الروحـــي للجماهير التي لا يمكن ان ترضي الدعاية وحدها رغبتها في المتعةالفنية، كما انها لا تستطيع التجاوب مع فن ينكر علاقته بواقع الحياة ومشكلاته.

والفكر اليميني يجد ارصدة ضخمة تعينه وتسنده : منها قـــوة العادة عند الجماهير ، والصعوبات التي تواجه مجتمعا يبني نفســـه ، والبيروقراطية التي يمكنها دوما التسلل من خلال تعقيداتها ومظهرهـــا المحايد . كما أن جو اليمين الفكري هو الملجأ المريح لفئات الشبانالذين يواجهون مشكلات الحياة الجديدة دون وعي وبلا احساس بالمشاركة .

ان نقطة البداية هي اعطاء الحرية للشعب المنظم ، الذي يستطيع دائما ان يجعل حريته ذات فاعلية في كبح هجوم اعدائه .

ان القاء جميع الاعباء على الحكومة يعني تحويلها الى بيروقراطية متحكمة ، وغير قادرة على القيام باي عمل جدي . انه من خلال حريـــة التعبير والنقاش ، حرية التنظيم والممارسة الفعلية لمسؤوليات الحكم ، يستطيع الشعب ان يحل التناقض بين الحكومة والشعب .

اننا بهذا نخلق الموقف لانتاج فن صحي ومتقدم لا من خلال مواعظ واوامـــر .

وفي النهاية نؤكد ان خطر تبعية الفن للسلطة او انعزاله عـــن رسالته يؤديان الى اضرار بالغة وجسيمة .

القاهرة — **غالب هلسا**

سراب

« الخيال ملاذ الضعفاء يدفنون رعبهم في سرابه العقيم »

دعنـــي ..
لا تسرح في اودية موهومه
ما جدوى الشعر اذا لم يطفىء
في القلب جحيمه ..
ما جدوى ان تسكر من غير رحيق
وحواليك ثغور الغيد تضج بما فيها
وتضيق ..
لا تخدعني ..
فالشعر خيال ومضله
وسراب لا يشفى غله
كم طرنا فوق جناح الوهم
الـى نجم كذاب
وتكحلنا بسواد الليل وكان
الفجـر سراب
لا تخدعني ..
حطم اقلامك واتبعني
فانا ما عدت اطّوف في دنيا
الاوهـــام
يا كم طوفت وعدت بلا احلام
الا حسرة قلبي المجهد
الا اشباحا تبكي تتنهد
يا عمري .. يا نجما في التيه تبدد
ماذا يجديك اذا رحت تنادي
محبوبا تـاه
اترى . ينفع قيس او تغنى ليلاه
لا تخدعني ..
فالجنة حلم الفانين الغرباء
لا لن تبلغها مهما رحت تدور
مهما اشرفت على موعد
مهما غنيت لها في الحلم السارى
الجنة ضاعت في زحمة هذا الزمن
العارى

القاهرة — **محمد صبري سليم**